***Dirasat*: Shari'a and Law Sciences, Volume 51, No. 1, 2024**

Deanship of Scientific Research

The Situation of Islamic Education in the North Caucasus from the Emergence of Islam in the Region to the End of the Nineteenth Century

***Anzor Mubin Safarbi Shkhanukov*[1]*, *Ahmad Muhammad Husein Addaghashi*[2]**

[1] Islamic Studies Department, Faculty of Al-Sharee'a and Islamic Studies, Yarmouk University, Jordan.

[2] Faculty of Theology, Iğdır University, Iğdır, Turkey.

Received: 20/12/2022
Revised: 21/3/2023
Accepted: 28/5/2023
Published: 1/3/2024

* *Corresponding author:*
anz.abuismail@gmail.com

Citation: Shkhanukov, A. M. S. ., & Addaghashi, A. M. H. . (2024). The Situation of Islamic Education in the North Caucasus from the Emergence of Islam in the Region to the End of the Nineteenth Century. *Dirasat: Shari'a and Law Sciences*, *51*(1), 81–96. https://doi.org/10.35516/law.v51i1.3400

© 2024 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: The study aims to provide a brief overview of the history of Islamic education in the North Caucasus, starting from the early centuries of Islam's emergence into the region until the end of the Caucasus War. It highlights the principles of Islamic education and reveals the conditions of teachers, students, administration, and educational institutions.

Methods: The nature of the current study necessitated the use of a historical approach to gather information and verify its accuracy according to the rules followed in historical studies. Various scientific sources such as books, research papers, journals, and others were relied upon.

Results: The study concludes that an integrated Islamic educational system was established in the North Caucasus, based on the circumstances and nature of the period, consisting of offices and schools. It also demonstrates that the North Caucasus region participated in the commitment to Islamic principles in its educational system. The educational system was characterized by certain features dictated by the circumstances.

Conclusions: The study recommends that those involved in the Islamic education sector in the North Caucasus build upon the positive aspects of the Islamic educational experience in the mentioned period and address any shortcomings and weaknesses. It encourages the integration of traditional and contemporary aspects within the significant developments in the field of education.

Keywords: Islamic education, North Caucasus, principles of Islamic education, teacher, student, educational institutions.

أوضاع التعليم الإسلامي في شمال القوقاز منذ ظهور الإسلام بالمنطقة إلى نهايات القرن التاسع عشر

***أنزور مبين سفربي شخانوكوف*[1]*، *أحمد محمد حسين الدغشي*[2]**

[1] قسم الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن.

[2] قسم الفلسفة والدراسات الدينية، جامعة إغدر، كلية الإلهيات، إغدر، تركيا.

ملخّص

الأهداف: تهدف الدراسة إلى تقديم لمحة موجزة عن تاريخ التعليم الإسلامي في شمال القوقاز منذ القرون الأولى لتغلغل الإسلام في المنطقة إلى نهاية الحرب القوقازية، مع إبراز مبادئ التعليم الإسلامي، والكشف عن أوضاع المعلمين والمتعلمين والإدارة والمؤسسات التعليمية.

المنهجية: اقتضت طبيعة الدراسة الحالية استخدام المنهج التاريخي لجمع المعلومات والتأكد من صحتها وفقاً للقواعد المتبعة في الدراسات التاريخية اعتماداً على المصادر العلمية بمختلف أنواعها كتباً وأبحاثاً ودوريات وغيرها.

النتائج: خلصت الدراسة إلى أنه قد تشكّل في شمال القوقاز نظام تعليمي إسلامي متكامل وفق ظروف المرحلة وطبيعتها قوامه المكاتب والمدارس. كما تبيّن أن منطقة شمال القوقاز شاركت العالمَ الإسلاميَ في التزام المبادئ في نظامها التعليمي؛ وتميز النظام التعليمي ببعض الخصائص وفق ما أملته الظروف.

الخلاصة: توصي الدراسة كلّ من يمتّ بالصلة لقطاع التعليم الإسلامي في شمال القوقاز بالبناء على الجوانب الإيجابية في تجربة التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة المذكورة وتلافي جوانب القصور والضعف، والسعي للجمع بين جوانب الأصالة والمعاصرة ضمن التطور الهائل في مجال التربية والتعليم.

الكلمات الدالة: التعليم الإسلامي، شمال القوقاز، مبادئ التعليم الإسلامي، المعلم، المتعلم، المؤسسات التعليمية.

المقدمة

تعدّ منطقة شمال القوقاز جزءاً من العالم الإسلامي منذ عهد الرعيل الأول، حيث سايرت الأطوار التي مر بها التاريخ الإسلامي، وتكيفت مع الأحداث، وتقاسمت مع بقية المسلمين مكونات الحضارة، بما في ذلك التعليم.

وقد استشعر المسلمون في شمال القوقاز أهمية العلم والتعليم لبناء الفرد وتطوير المجتمع، فبذلوا جهوداً كبيرة في سبيل الرقي في مدارج الكمال.

ومما يؤسف له أن التاريخ لم يحفظ كثيراً من التراث التربوي والإرث التعليمي لمسلمي شمال القوقاز، وهو أمر قد تأسف عليه كثير من العلماء والباحثين، فهذا حسن القداري الداغستاني (ت1327هـ/1910م)، من أبرز العلماء في العصور المتأخرة، والذي تصدى لتدوين تاريخ داغستان، ينشد من إنشائه هذه الأبيات:

فليرتض النظار من هذا الميسر باليسير
تحرير أحوالات دا غستان للماضي عسير
لم يكتب أسلاف لنا منها ولو مثل النقير
فكأنني في جمعها مستنبط لا مستعير يا ليت إخواننا لنا ضبطوا لما يأتي المصير
فيكون من قطراتهم مع قطرتي مدد الغدير

ولا يختص هذا الأمر بمنطقة شمال القوقاز، بل يعم أرجاء العالم الإسلامي، بل العالم أجمع، حيث لم يعتن المؤرخون بالقدر الكافي والتفصيلي لواقع التعليم في أزمانهم وما قبل أزمانهم. (شلبي، 1954).

ومع ذلك، فإن المحفوظ من هذا التراث يعدّ كنزاً، ولا يجوز التهاون به بحجج واهية، كما قال القائل بأنه ينبغي "تغيير أساليب التحليل من الغيبي التقريري إلى المستوى الإنساني القائم على الواقع المحسوس ودوافع التحرير للواقع الاجتماعي، والاقتناع بأن الموروث القديم كان معطيات لفترة تاريخية قد مضت، ولم تعد متلائمة لروح العصر...". (بني عيسى، 2022).

إذا ليس كل قديم مردوداً وليس كل جديداً مقبولاً، فينبغي مقاومة الانقطاع "بين الأحفاد وتراث الأجداد، بسبب طول العهد وتقادم الزمن، مع ضعف الاهتمام والوفاء لما خلفه الأجداد، والانبهار بكل ما وفد إلينا من مدنية الغرب، وما رافقه من نظريات وقوانين وأفكار". (الصبيحات، 2016).

والطريقة الصحيحة هي الإفادة من القديم والبناء عليه دون هدمه والإعراض عنه، إذ "لا سبيل إلى الانقطاع عن العمل بالتراث في واقعنا؛ لأن أسبابه مشتغلة على الدوام فينا، آخذة بأفكارنا، وموجهة لأعمالنا، متحكمة في حاضرنا، ومستشرفة لمستقبلنا...". (طه، 1994).

والرجوع إلى القديم ضروري خصوصاً في هذه الأزمنة المتأخرة التي لم يعد فيها شيء ثابت يركن إليه وقيم يبنى عليها، بل أصبح العقل المسلم في حيرة واضطراب من كثرة الاتجاهات المختلفة التي تتحكم في عملية التعليم، لا سيما مع وجود الروح الانهزامية.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة كمحاولة لتسليط الضوء على أطوار التعليم الإسلامي وأنماطه في شمال القوقاز منذ ظهور الإسلام في المنطقة إلى حين دخولها في دائرة النفوذ للدولة الروسية؛ ليتمسك به المسلم القوقازي في وجه العواصف العاتية، وليستفيد منه كل من أراد الاطلاع على التراث التربوي لمسلمي شمال القوقاز.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

تتمثل مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

ما أوضاع التعليم الإسلامي في شمال القوقاز منذ ظهور الإسلام بالمنطقة إلى نهاية الحرب القوقازية؟

وفي ضوء السؤال الرئيس ستحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الفرعية التالية:

1. ما حالة التعليم الإسلامي في مرحلة تشكّله في شمال القوقاز؟
2. ما مبادئ التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة المذكورة؟
3. ما أوضاع المعلمين والمتعلمين والإدارة والمؤسسات التعليمية في شمال القوقاز؟

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

1. تبيين حالة التعليم الإسلامي في مرحلة تشكّله في شمال القوقاز.
2. إبراز مبادئ التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة المذكورة.
3. تسليط الضوء على أوضاع المعلمين والمتعلمين والإدارة والمؤسسات التعليمية في شمال القوقاز.

أهمية الدراسة

تتجلى أهمية الدراسة الحالية في الجانبين: النظري والتطبيقي:

الجانب النظري:

- سد الفراغ في تاريخ العملية التعليمية الإسلامية بشمال القوقاز.
- الكشف عن الجهود التي بذلت في سبيل النهوض بالتعليم الإسلامي.
- الإسهام في نشر الوعي عن حالة التعليم الإسلامي بشمال القوقاز، وإثبات عراقتها وعدم غربتها.
- المشاركة في إحياء التراث الإسلامي وتقديم تصور صحيح حول واقع التعليم الإسلامي بشمال القوقاز.

الجانب التطبيقي:

- إتاحة المجال للباحثين للاطلاع على المصادر المختلفة في حقل التعليم الإسلامي بشمال القوقاز، ومن ثم إجراء الدراسات والبحوث بالاستناد إلى الدراسة الحالية.
- توفير مادة يستفاد منها في إعداد المواد الدراسية وتدريسها، كمادة "التاريخ الإسلامي" و"التربية الإسلامية" بالمدارس والجامعات بالداخل والخارج.
- تحقيق التفاعل وتبادل الخبرات بين المهتمين بموضوع التعليم الإسلامي على مستوى الأمة.

منهج الدراسة وإجراءاتها:

اقتضت طبيعة الدراسة الحالية استخدام المنهج التاريخي لجمع المعلومات عن التعليم الإسلامي بالمنطقة والتأكد من صحتها وفقاً للقواعد المتبعة في الدراسات التاريخية.

والمصادر التي أمدتنا بالمادة في هذا الموضوع يمكن تقسيمها إلى عدة أقسام:

- كتب عامة في تاريخ الإسلام، مثل "تاريخ الإسلام" للذهبي، و"معجم البلدان" للحموي...
- كتب في تاريخ القوقاز خاصة، مثل كتاب "تاريخ القوقاز" لعزت باشا، وكتاب "قفقاسيا" لمحمود شاكر، وتلحق بها كتب الرحلات، مثل "تحفة النظار" لابن بطوطة.
- كتب لعلماء شمال القوقاز تعرضت لأوضاع التعليم الإسلامي، مثل: كتاب "التذكرة في بيان أحوال أهالي داغستان والشيشان" لعبد الرحمن الغموقي، وكتاب " ديوان الممنون" لحسن القداري...
- كتب في تاريخ التعليم الإسلامي العام، مثل كتاب "تاريخ التربية الإسلامية" لأحمد شلبي، وكتاب إسماعيل علي الموسوم بـ" موسوعة التطور الحضاري للتربية الإسلامية"....
- كتب التراجم، مثل كتاب "نزهة الأذهان" لنذير الدركلي، وكتاب المحبي: "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"...
- مراجع حديثة في تاريخ التعليم الإسلامي بشمال القوقاز، مثل كتاب الباحث يارليكابوف "التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الماضي والحاضر" باللغة الروسية، وأطروحة الدكتوراة للباحثة راغيموفا "التعليم الديني في داغستان: التاريخ والمعاصرة" باللغة الروسية....

حدود الدراسة:

الحدود المكانية: اقتصرت الدراسة من حيث المكان على منطقة شمال القوقاز والشعوب القاطنة فيها، وبالأخص شعب داغستان والشيشان وكذا الشعب الشركسي.

الحدود الزمنية: شملت ما بين تاريخ ظهور الإسلام الأول في المنطقة إلى نهاية الحرب القوقازية، أي سنة 1280هـ/1864م.

الحدود الموضوعية: هي التي تمت الإشارة إليه في أسئلة الدراسة، مع التنبيه إلى أن الباحثين لم يعمدا إلى استغراق كل أوضاع التعليم الإسلامي في شمال القوقاز نظراً لكثرتها ولمحدودية المساحة المتاحة للنشر في الدراسة الحالية.

مصطلحات الدراسة

أهم المصطلحات التي استخدمت في الدراسة هي:

1. التعليم الإسلامي

التعليم هو: عملية أدائية تفاعلية بين المعلم والمتعلم، تهدف إلى تنمية المهارات والاتجاهات عند الأفراد من خلال الأساليب المختلفة. ونسبة التعليم إلى الإسلام توحي إلى أنه يصطبغ بصبغة إسلامية باستناده إلى مصادر الإسلام واجتهادات علمائه (السيد، 2011).

ولذلك فالتعريف الإجرائي للتعليم الإسلامي في هذه الدراسة: هو بعض ما يتصل بنسق التعلم والتعليم في الفترة محلّ الدراسة في شمال القوقاز، وتشمل عناصر التعليم من حيث: المعلّم، والمتعلم، ومناهج التعليم وطرائق التدريس، ومؤسسات التعليم، وجهات تمويل التعليم... إلخ

2. شمال القوقاز

القوقاز أو القفقاز اسم يطلق على المنطقة التي تقع بين جانبي الجبال القوقازية الممتدة بين البحرين: الأسود والقزوين (الحموي، 1995)

وتقسّم القوقاز من حيث الجغرافيا إلى شمالية وجنوبية، فما يقع شمال الجبال القوقازية وجنوب روسيا يسمى شمال القوقاز، ويقع حالياً في حدود روسيا، ويتكون من سبع جمهوريات ذات حكم ذاتي، وما يقع جنوب الجبال يطلق عليه جنوب القوقاز، ويضمّ في العصر الحديث ثلاث دول مستقلة: أذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا (شاكر، 1994). وهذه الدراسة ستكون، بإذن الله، منصبّةً على شعوب شمال القوقاز.

خطة البحث

تمهيد بين يدي البحث: حالة التعليم الإسلامي في مرحلة تشكّله في شمال القوقاز

أولاً: تاريخ الإسلام بالمنطقة

ثانياً: المساجد مكاناً للتعليم

ثالثاً: ظهور المدارس الأولى في مرحلة مبكرة

رابعاً: إنجازات علماء المنطقة

خامساً: الانتشار الواسع للغة العربية

المبحث الأول: مبادئ التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة المذكورة

المطلب الأول: مبدأ المجانية

المطلب الثاني: مبدأ الإلزامية

المطلب الثالث: مبدأ الاستمرارية

المبحث الثاني: أوضاع المعلّمين والمتعلّمين والمؤسسات التعليمية في شمال القوقاز

المطلب الأول: أوضاع المعلّمين

المطلب الثاني: أوضاع المتعلمين

المطلب الثالث: المؤسسات التعليمية

الخاتمة: وبها تنتظم النتائج والتوصيات

تمهيد بين يدي البحث

حالة التعليم الإسلامي في مرحلة تشكّله في شمال القوقاز

أولا: تاريخ الإسلام بالمنطقة

يتصل تاريخ التعليم في العالم الإسلامي بأسره اتصالاً وثيقًا بتاريخ انتشار الإسلام، فأينما انتشر الإسلام قارنه التعليم بجميع عناصره ومكوناته، وبما أن الإسلام وصل إلى منطقة شمال القوقاز، لا سيما إلى الجزء الشرقي منها، في مرحلة مبكرة، فإنه لا بد أن تضرب جذور التعليم الإسلامي فيها أعماق التاريخ.

لقد أضاء نور الإسلام منطقة القوقاز في عهد الخلفاء الراشدين على يد الصحابي الجليل سراقة بن عمرو، رضي الله عنه، وفي هذا الصدد يقول نذير الدركلي (ت 1354هـ/1935م) رحمه الله: "وكان فيما مضى قد وطئت إلى بلادنا هذه أقدام الليوث من المجاهدين والقائمين، من الصحابة ومن بعدهم من الناشرين، ولقد حملوا معهم من العلماء المحققين، والمحدّثين والنابغين، بعضهم كروا بعد قضاء ما لزم عليهم، وبعضهم قد ألقوا رحلة إقامتهم بها إلى أن توفوا فيها، وبعد ذلك نبغ فيها علماء ومشايخ وأدباء، وأخيار ونجباء، عصراً بعد عصر إلى عصرنا، هذا عصر القرن الرابع عشر...". (الدركلي، دون تاريخ).

وأول من أسلم من شعوب شمال القوقاز هم أهل داغستان، وذلك في القرن الأول الهجري، ومن ثم سرى الإسلام غرباً لبلاد القبردي وما وراءها. (عزت، 1933).

وقد دلت الآثار التاريخية الباقية على هيئتها الأولى أو على أجزاء منها على عراقة حضارة الإسلام بالمنطقة وأصالتها. (Shikhsaidov, 2001)، فالآثار "تعدّ وسيلةً مهمة في بيان تاريخ المعارف والعلوم ونقلها إلى الأجيال المتعاقبة". (بني أحمد والزقيلي، 2010).

ثانياً: المساجد مكاناً للتعليم

وعندما استقرت سلطة الخلافة الإسلامية في دربند (باب الأبواب) وضواحيها في أوائل القرن الثاني الهجري (بداية القرن الثامن الميلادي)، تم بناء جامع كبير وسبعة مساجد محلية بأمر من القائد العربي مسلمة بن عبد الملك (ت121هـ/738م)، رحمه الله. (الذهبي، 1993).

وابتداءً من بناء المساجد الأولى بالمنطقة بدأ تشكّل نظام التعليم الإسلامي في شمال القوقاز، حيث كان فتح المنطقة "مصحوباً في كل مكان بإنشاء نوع من المراكز الدعوية والفكرية لنشر الإسلام...". (Ragimova,2005).

والمساجد هي أساس التعليم في الإسلام، هو "محور لجميع نشاطات المسلمين وهو منبع التراث المعماري الإسلامي على مر العصور... يؤدي فيه المجتمع المسلم نشاطاته الدينية والثقافية والاجتماعية، عاكسا في ذلك أحد أهم مبادئ الإسلام وهو أنه دين ودنيا وعقيدة وعمل متكاملين متلاحمين". (البلداوي.2023).

والمسجد هو "الشكل الأساسي للمؤسسة التربوية الإسلامية الأصلية". (علي، 2010)، وبها كانت تنظّم المدارس الابتدائية المسماة بالمكاتب ابتداءً من القرون الأولى إلى يومنا هذا، وإن لم تكن هذه التسمية مشهورة في القوقاز.

لم تقتصر وظيفة المسجد على جانب العبادات المحضة، بل كانت تؤدي دور المؤسسات التعليمية في كافة مناطق الخلافة الإسلامية، بما في ذلك منطقة شمال القوقاز (Shikhsaidov, 2001).

ثالثاً: ظهور المدارس الأولى في مرحلة مبكرة

ظهرت المدارس كمؤسسات تعليمية إسلامية من المستوى الثاني بعد المكاتب في شمال القوقاز في وقت مبكر، وإذا كان من أعظم الإنجازات التأسيسية الكبرى في مجال التربية والتعليم ما قام به نظام الملك الوزير السلجوقي في عام 459هـ (1067م)، فصارت معياراً واقتدى به الناس، فإن جنوب داغستان في ذلك الوقت شاركت بنشاط في هذه العملية، بل وتفوقت على العديد من المناطق الأخرى في العالم الإسلامي. (Yarlykapov, 2003).

وفي هذا السياق يقول الدركلي: "واعلم أن العلوم والمعارف الإسلامية إنما وصلت إلى القفقاز بل إلى ولاية داغستان إنما كانت بواسطة المجاهدين والفاتحين والمتجولين في عصر الحكومة الإسلامية منذ كانت (بغداد) مركزاً للإسلام ومنبعاً للعلوم والمعارف، ثم بعد ذلك أخذ المرتحلون من أهل القفقاز والداغستان إلى بغداد يحصّلون العلوم والآداب وكان أشدهم سعيًا واجتهادًا لذلك رجال من ولاية (أوار) وما يلحقها". (الدركلي، دون تاريخ).

قد تم بناء المدرسة الأولى في شمال القوقاز في قرية تساخور (ظاخر) في مرحلة زمنية لا تتجاوز نهاية القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي)، وقد تطرق لذكرها المؤرخ زكريا القزويني (ت 682هـ)، وأشار إلى أن "أهل المدينة كلهم شافعية، بها مدرسة بناها الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحق، وفيها مدرس وفقهاء...". (القزويني، دون تاريخ)، كما ظهرت مدارس في دربند وبعض القرى في جنوب داغستان.

ولعل من المناسب الإشارة هنا أن المدرسة الأولى بنيت في مكة المكرمة عام 578هـ (1183م) فقط، وفي تونس عام 649هـ (1252م). (Shikhsaidov,1987).

ثم تزايدت أهمية دربند لتصبح مركزاً تعليمياً رئيساً في شمال القوقاز، فتأسست أعراف مستقرة لدراسة كتب الفقه، والحديث، وتناول المؤلفات السلوكية والتاريخية.

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كان هناك بالفعل العديد من المدارس الإسلامية "لأولئك الذين يقربون من منطقة المركز والذين لديهم اهتمام بالعلوم الإسلامية". (Gadzhiev, 1996).

رابعاً: إنجازات علماء المنطقة

ويمكننا التحقق من نجاح العملية التعليمية وتحقيقها لنتائج جيدة في تلك العصور المتقدمة من خلال شهادات المؤرخين الذين سجلوا أن أهل لاكز (جنوب داغستان) لم يكونوا طلبة ممتازين فحسب، بل سرعان ما أصبحوا أساتذة لغيرهم، ينقلون معارفهم في مجال العلوم الإسلامية للشعوب المجاورة.(Yarlykapov, 2003).

ومما يشهد لفضل العلماء من أهل المنطقة ما نقله الرحالة ابن بطوطة (ت779هـ/1378م) أنه لما زار مدينة السراي، عاصمة دول المغول، لقي هناك "من مدرّسي الشافعيّة الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي، أحد الفضلاء". (ابن بطوطة، 1996).

تشير هذه الشهادة إلى أنه في تلك الفترة قد تم الاعتراف بأهل جنوب داغستان كعلماء يوثق بهم في مجال الفقه الشافعي، وبالتالي كانوا يكلّفون بتدريسه في المدرسة. (Yarlykapov, 2003)، هذا وسيرد ذكر بعض علماء المنطقة في مجال الفقه الشافعي وغيره.

واستناداً إلى المعطيات المتاحة اليوم يمكننا أن نخلص إلى القول بأنه تم تشكّل نظام تعليم إسلامي يعمل بنجاح في إقليم جنوب داغستان بحلول القرنين السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلادي)، وكان هذا النظام يفي بحاجة الناس في مجال التعليم ليس للمنطقة فحسب، بل للمناطق المجاورة أيضاً.

يقول الدركلي: "كانت ولاية داغستان معدناً للعلوم الجمّة والكمالات البالغة حتى كانت العلوم العربية كالنحو والصرف وغيرها بالغةً مبلغها، ورائجةً سوقها، فلذلك كان يرحل إليها العلماء من الولايات الأخرى". (الدركلي، دون تاريخ).

واستمر هذا الوضع في الأزمنة اللاحقة أيضاً، فقد ذكر المؤرخون في كتب التراجم عدداً كبيراً من علماء المنطقة الذين استقر بعضهم في بلاد الشرق الإسلامي وأثروا الثقافة الإسلامية بأعمالهم. (الحموي، 1995).

وقد أشاد المستشرق الروسي الكبير كراتشكوفسكي (ت 1371هـ/1951) بانتشار العربية في هذه البقعة أكثر من انتشارها في بعض البلدان الإسلامية الأخرى ووجود كتب محلية الإنشاء فقال: "... لم يحتفظ أي بلد غير عربي بالمؤلفات المحلية التي نشأت باللغة العربية بهذه الحيوية الكاملة

حتى الربع الثاني من القرن العشرين".

وأرجع كراتشكوفسكي ظهور المؤلفات المحلية الأصلية باللغة العربية في داغستان والشيشان وإنغوشيا وبعض الأجزاء من بلاد الشركس إلى ما بعد القرن العاشر الهجري، (Krachkovski, 1960)، وذلك استنادًا إلى رأي العالم الداغستاني الكبير حسن القداري(Alkadari, 1891)، لكن الدراسات الحديثة التي أجراها علماء داغستان حول تراث المخطوطات العربية المحلية أتاحت لهم تحديد مرحلة أسبق في تشكيل الأدب الداغستاني المحلي باللغة العربية. (Shikhsaidov, 1987).

ومنذ نهاية القرن التاسع الهجري أصبحت المدارس هي المراكز الرئيسية للحياة الدينية للمجتمع، ويلبي خريجوها "الطلب المتزايد باستمرار على المخطوطات والكتب التعليمية، والرسائل العلمية المشهورة". (Shikhsaidov, 1987).

وإن التنوع الموضوعي للمخطوطات الموروثة مذهل: من التاريخ والفقه والنحو والتفسير والشعر والأخلاق والمنطق والرياضيات والطب وغيرها، فكل هذه العلوم كانت تُدْرَس وتُدَرَّس في المدارس في تلك الفترة.

خامساً: الانتشار الواسع للغة العربية

وبمرور الوقت ينمو نطاق اللغة العربية في شمال القوقاز، وخاصة في داغستان، وتلقى رواجاً كبيراً لتصبح لغةً ليست للتعليم فحسب، بل للثقافة بشكل عام؛ فبها تنشأ المصنفات العلمية والأعمال الأدبية، وبها تتم الأعمال الإدراية، وهي لغة المراسلات الخاصة والرسمية.

وهنا يجب التأكيد على العلاقة الوطيدة بين اللغة والثقافة، "فإذا كانت الثقافة قيما يعيشها أو يعيش عليها مجتمع، كانت اللغة من أهم مكونات هذه القيم...، فمسيرة اللغة تؤثر دوما على ثقافتها والعكس صحيح، واللغة العربية لا تستثنى من هذه الحقيقة إذ إن لها علاقة يمكن وصفها عضوية بالثقافة العربية والإسلامية...". (Jauhar، 2014).

وقد تغلغلت اللغة العربية في عمق الحياة من خلال أقوال مأثورة ومقاطع شعرية، فلم تكن المؤلفات باللغة العربية لأهل المنطقة، كما يقول المستشرق كراتشكوفسكي: "غريبةً أو زينةً مستوردة للتعالم الظاهري، بل كانوا يعيشون بها حقًا".(Krachkovski, 1960).

وتتضح الجذور العميقة للغة العربية في شمال القوقاز من خلال الشهادة التالية لعالم الإثنوغرافيا الداغستاني في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) عبد الله عمروف: "عندما بدأت في الصغر أنطق بالكلمات... كنت أعرف أسماء الأصابع باللغة العربية قبل معرفتها باللغة الأم...". (Omar-ogly,1868).

وما كان أهل شمال القوقاز ليولوا للغة العربية هذه العناية الفائقة لو لا أنهم كانوا واعين تماماً أن "العناية باللغة العربية عناية بالشريعة الإسلامية، وأن من يريد فهم القرآن وعلومه فهو بحاجة إلى أن يُتقن علوم اللغة العربية، وأن لا سبيل إلى معرفة أحكام الشرع إلا بمعرفة اللغة العربية وعلومها". (المنصور، 2022).

ونظرًا لتوسع نطاق اللغة العربية وزيادة انتشار الإسلام، فإن الحاجة إلى المؤسسات التعليمية الإسلامية أخذت في الازدياد، وبالتالي، بحلول القرن الثالث عشر، أصبحت شبكة المكاتب والمدارس في داغستان كثيفة للغاية.

وفيما يتعلق ببقية المناطق من شمال القوقاز فلها مكانتها وريادتها أيضاً، وإن كانت داغستان لها التفوق في بعض الجوانب نظراً لسبقها في اعتناق الإسلام ولظروف أخرى يطول ذكرها، إلا أن نظام التعليم الإسلامي كان قائماً في غيرها أيضاً، وكان للمدارس الإسلامية وجود فيها منذ القرن الحادي عشر الهجري، حسب المصادر المتاحة.

وقد استخلص الباحث المشهور بوبروفنيكوف من خلال بعض الكتب والمخطوطات التي عُثِرَ عليها في منطقة قبردي أن الفكرة القائلة بأن الإسلام "متخلف" في شمال غرب المنطقة، والتي تنتشر بين المستشرقين وغيرهم في روسيا، لا تتفق مع الواقع، فيقول: "صحيح أن كثافة الحياة الثقافية والحجم الهائل لمجموعات الكتب في داغستان كانت ولا تزال أكبر بكثير... لكن المسلمين المثقفين هنا (قبردي) لم يكونوا أقل إلمامًا بالقضايا الإسلامية من أقرانهم في روسيا ودول أخرى". (Bobrovnikov, 2005).

ويؤكد كراتشكوفسكي على ذلك بقوله: "على الرغم من أن "أسلمة" بعض مناطق القوقاز تنتمي إلى فترات متأخرة إلى حد ما، فقد تم تعريبها بشكل شامل لدرجة أنه في بعض الحالات صارت اللغة العربية هي اللغة الأدبية الرئيسية لعدد من المناطق". (Krachkovski, 1960).

وهذا رئيس أركان ساحل البحر الأسود للجيش الروسي كارلغوف في القرن الثالث عشر يصرح بهذه الحقيقة بخصوص الشعب الشركسي فيقول: "إن دراسة اللغة التركية ومبادئ العقيدة الإسلامية هي محور التعليم لتلك الفئة من الناس الذين لديهم حس المسؤولية تجاه تربية الأولاد". (Karlgoff, 2004).

ومن الحقائق المعروفة أنه لم يكن هناك أي نوع من التعليم لدى الشراكسة سوى التعليم الإسلامي قبل أن تفتتح السلطات الروسية مدارسها، وكان أهل العلم الشرعي هم المعلمون الوحيدون في بلاد الشركس، وكانوا يتمتعون بمكانة عالية في المجتمع. (Neflyasheva, 2009)

المبحث الأول: مبادئ التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة المذكورة

يتسم التعليم الإسلامي بمجموعة من المبادئ والمسلّمات التي يلازمها ويقوم عليها، وشاركت منطقة شمال القوقاز العالمَ الإسلاميَ في التزام هذه المبادئ في نظامها التعليمي، وقد اقتصرنا هنا على ثلاثة منها، وهي: مبدأ مجانية التعليم ومبدأ الإلزامية ومبدأ الاستمرارية؛ لتكون نموذجاً دالاً على مبادئ أخرى.

المطلب الأول: مبدأ المجانية:

مجانية التعليم مبدأ أساسي "لتحقيق العدل التربوي وتكافؤ الفرص التعليمية والاستفادة من قدرات أبنائها كافةً بغض النظر عن إمكاناتهم المالية". (الدهشان، 2019)

إنه لا ينبغي أن تقف الظروف الاقتصادية والاجتماعية دون حصول المرء على هذا الحق، لا سيما في المراحل الأولى من العمر، وقد يكون هناك أذكياء ونبغاء من العائلات الفقيرة، فيكون حرمانهم من التعليم سبباً في حرمان المجتمع من قدرات هذه النخبة، وقد تتحول هذه القدرات إلى عوامل فساد وإفساد.

وتفيدنا المصادر المتاحة حول هذا المبدأ أن المكاتب والمدارس في شمال القوقاز كانت مؤسسات تعليمية مجانية، إلا ما تأتيها من جهة التبرعات والهبات التطوعية، فكانت المؤسسات التعليمية تدار بما يأتيها من تبرعات خاصة أو أموال الزكاة أو الأموال الموقوفة.

وقد كان الأيتام وأولاد الفقراء غير مطالبين بشيء من ذلك، علاوةً على ذلك فقد كانت هذه الطبقة تتلقى النفقات التي تحتاجها من أوقاف المساجد وغيرها. (Kaimarazov, 2001).

وفي عهد الإمام شامل أخذت الإمارة على نفسها تنظيم الأمور التعليمية بما في ذلك تمويلها، وشكّلت مجلساً يتولّى شؤون المعلّمين والمتعلمين والمؤسسات التعليمية، ويرعى الموهوبين من أولاد المسلمين، ويقدّم إعانات لأبرز العلماء ويمنحهم رواتب من خزينة الدولة، ويعفيهم من الضرائب والخدمة العسكرية. (Ramazanova, 2006).

المطلب الثاني: مبدأ الإلزامية:

ظهر مصطلح "إلزامية التعليم" في العصور المتأخرة، ويقصد به: إلزام قانوني لأولياء الأمور بإرسال أولادهم إلى المدارس حين بلوغهم سن التعليم وفرض عقوبات عليهم إذا ما قصروا في ذلك. (Kaimarazov, 2001).

وهو فكرة لها جذورها في تاريخ التعليم الإسلامي، وأخذ بها المسلمون في حياتهم الثقافية، حيث فهموا من نصوص الشريعة أن التعليم والتعلم أمور ضرورية لا يستغني عنها مسلم ما دام يحيى على هذه الأرض، ومن أصرح الأدلة على ذلك ما جاء في الحديث: "لَيُعَلِّمَنَّ قومٌ جيرانَهم، وَلَيُفَقِّهَنَّهُمْ، وَلَيُفَطِّنَنَّهُمْ، وَلَيَأْمُرَنَّهُمْ، وَلَيَنْهَوْنَهُمْ، وَلَيَتَعَلَّمْنَ قَوْمٌ مِنْ جيرانِهم، وَيَتَفَطَّنُونَ، وَيَتَفَقَّهُونَ، أَوْ لَأُعَاجِلَنَّهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا"، (أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، باب فِي تَعْلِيمِ مَنْ لَا يَعْلَمُ ج1، ص164، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب، ج1، ص71)، وبناءً على ذلك أقبل الجيل الأول من المسلمين "يتلقّون العلم، ويتفقّهون في الدين، ويعلّم بعضهم بعضاً، ويتعلّم بعضهم من بعض، حتى أزالوا العامّيّة عنهم في وقت قصير عاجل". (أبو غدة، 1996).

وهذا المبدأ، أي مبدأ إلزامية التعليم، نجد شواهده في نظام التعليم الإسلامي بشمال القوقاز، حيث كان التعليم إلزامياً، ولكنه كان إلزاماً ذاتياً من قبل أولياء الأمور دون فرض سلطوي، وذلك استشعاراً بمسؤوليتهم أمام الله في رفع الجهل عن الأولاد لِيَقُوهُمْ عار الدنيا ونار الآخرة. (Ragimova, 2005).

والأصل في رسوخ هذه الفكرة في نفوس مسلمي شمال القوقاز هو قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ". [التحريم: 6]، وحديث: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته...". (البخاري، [893]، ج2، ص5؛ مسلم، [1829]، ج3، ص1459).

فضرورة تعليم الأولاد كان اعتقاداً راسخاً في النفوس، وقد كان يساعد على الإقبال على العلم والتعلم والتعليم ما كان يتمتع به أهل العلم من مكانة في قلوب الناس وإكرامهم إياهم، فكان الآباء إذا كانوا مؤهّلين للتعليم يتولون تعليم أولاهم بأنفسهم، لا سيما في المراحل الأولى، وإلا أرسلوهم إلى المكاتب والمدارس، ولا يتركونهم مهملين. (Native, 1900).

المطلب الثالث: مبدأ الاستمرارية:

فكرة "استمرارية التعليم" مهمة لتطوير الأفراد والمجتمعات، إذ إن معناها: هو إعطاء كل شخص فرصة للتحسين المستمر والتطوير الإبداعي والمهني، وتحديث المعرفة والمهارات طول الحياة، وبالتالي المساهمة في ازدهار المجتمع كله. (Zaitseva,2009).

وأصولها موجودة في التربية الإسلامية، فالتعليم في الإسلام لا ينتهي بفترة زمنية محددة، ولا بسن معينة، وإنما يمتد مدى الحياة، وفي طلب الزيادة

من العلم عموم لا يخص منه زمان، قال عز وجل: "وقلْ ربِّ زِدْنِي علماً". (طه:114)، وعن مالك بن أنس رحمه الله: "لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلّم". (ابن عبد البر، 1994).

وفيما يخص الوضع في شمال القوقاز فإن الباحث في الشؤون التعليمية في داغستان كايمارازوف يشير إلى أن التعليم كان متاحاً لكل أحدٍ من أهل المنطقة بغض النظر عن عمر المتعلّم ووضعه المادي والتعليمي. (Kaimarazov, 2001).

وقد كان التعليم في المدارس يستمر مدةً طويلةً بحيث تمتد إلى عشرين سنة أو أكثر، ثم إذا تخرج الطالب في المدرسة وكان من النجباء فإنه لم يكن ينقطع عن التعليم، بل يستمر يلازم عالماً من العلماء ولا يفارقه إلى أن يخلفه.

وهذا الشيخ الحاج علي بن عبد الملك من أهل قرية تشوخ الداغستانية يذكر من سيرته أنه من مواليد سنة 1234هـ (1817م)، درس القرآن لمدة ثماني سنوات، ثم طلب العلوم الشرعية والعربية لمدة ثماني عشرة سنة على أيدي علماء داغستان. (Ragimova,2005).

والعالم اللغوي الروسي أوسلار (ت 1282هـ/1875م) الذي عاين وضع التعليم الإسلامي في شمال القوقاز، والذي كان يتعصب ضد التعليم الإسلامي، ومع ذلك فإنه يعترف بهذه الحقيقة ويقول: "على الرغم من صعوبة تعلم هذه اللغة (العربية)، لا سيما على طريقة المعلمين المحليين، فإن الرغبة في التعرف إلى العلوم العربية عالية جداً بين أهل المنطقة، لدرجة أنهم يدرسون ابتداءً من ثمان سنوات إلى ثلاثين سنة أو أكثر بالانتقال من مدرسة إلى أخرى اشتهرت معلموها بعلمهم". (Uslar, 1887).

ويسجل الجنرال الروسي دَيلبوتْسو (ت 1236هـ/1821م) في رسالته إلى القيصر أن العالم الشركسي إسحاق أبوقوه: "تمكّن في وقت قصير من تطوير أمة قبردي في الشريعة المحمدية، وحالياً هناك كثير من الرجال من الطبقات العليا، الذين قاربوا الأربعين من أعمارهم، يتعلمون لغة التتر ليتمكّنوا من فهم القرآن". (Russian State Military Historical Archive).

المبحث الثاني: أوضاع المعلّمين والمتعلّمين والمؤسسات التعليمية في شمال القوقاز

المطلب الأول: أوضاع المعلّمين

يطلق المعلّم على كل من يقوم بالتعليم سواء داخل المؤسسات التعليمية المنظّمة كالمكاتب والمدارس أو في غيرها كالمنازل والمساجد، وقد يسمى أستاذاً أو شيخاً أو غير ذلك، وقد يكون عمله تطوعاً أو مقابل أجر. (شلبي، 1954).

والمعلّم هو ركن أساسي في العملية التعليمية، بل هو "أبرز أركان العملية التربوية، لأثره البالغ في تنشئة الأجيال، وتربيتهم التربية الصحيحة" (الرويشد، 2022). وهو "محور الارتكاز في تحقيق الأهداف التربوية"، ولا غنى عنه، لا في المراحل الأولى ولا في المراحل الأخيرة، فهو ضروري لشرح الأفكار وتزكية الأخلاق (سليمان، 2006).

وكان المعلّمون على درجات، منهم من يصل إلى أعلى المقامات العلمية فيتولى القضاء أو الإفتاء ويباشر التعليم أيضاً في المدارس، ومنهم من ينحصر علمه في إتقان القراءة بالعربية والكتابة بها فيتولى التعليم بالمكاتب، ومنهم من يتخذ بين ذلك سبيلاً. (Selimkhanov, 1957).

وإذا كثر عدد التلاميذ في الصف كان المعلّم يتخذ أعواناً من التلاميذ النجباء فيتولون التعليم نيابة عن المعلّم.(Omar-ogly,1868).

ومن المعروف الشائع أن المعلّم في شمال القوقاز كان يحظى دائماً بتقدير وتوقير من قبل التلاميذ وأولياء أمورهم، وكان صوته مسموعاً ورأيه محترماً.

وهذا عالم لغوي روسي أوسلار المذكور آنفاً يشهد على تفاني المعلمين في التعليم فيقول: "يقوم الشخص الذي يقيم في قرية نائية ومعزولة ويعرف القراءة والكتابة باللغة العربية، فيفتح مدرسةً في بيته للتلاميذ الوافدين، مكتفياً بأجرة ضئيلة"، ثم يتساءل بأسلوب الاستفهام الإنكاري: "هل تتوفر مثل هذه الظروف لروسي يفكر في فتح مدرسة في داغستان لتعليم الأطفال الكتابة الروسية ومحو الأمية؟!". (Uslar, 1887).

وقد أنجبت المدارس القوقازية علماء كباراً واصل بعضهم تعليمه في الخارج، فتربت الأجيال على أيديهم وتوارثوا العلم قرناً بعد قرن، ولا بأس هنا من الإشادة بذكر بعضهم، لا سيما من اشتهر منهم بالإفادة والتعليم وتولي شؤون المدارس:

ومن أبرز علماء شمال القوقاز :الشيخ محمد بن موسى القدوقي (1129هـ/1717م)، رحمه الله؛ فبعد ما عاد الشيخ من بلاد الشرق الإسلامي، حيث تابع هناك تحصيل العلم لأكثر من خمسة عشر عامًا، اجتمع حوله مجموعة من العلماء وشكّلوا نوعًا من المدراس العلمية والفلسفية.

ومما يذكر عن الشيخ القدوقي أنه كان ينتسب إلى مدرسة الأشعري في العقيدة، ولكنه لم يحصر نفسه فيها، بل كانت له اجتهادات فردية، وكان قدوتَه في ذلك شيخه صالح المقبلي اليمني (ت 1108هـ/1696م)، رحمه الله، والذي درس على يديه فترةً طويلةً، وقد كان الشيخ صالح معروفا بآرائه الحرة في مجال العقيدة وعلم الكلام.

جلب الشيخ محمد كتب الشيخ المقبلي إلى داغستان، مثل كتاب "العلم الشامخ"، وقد نسخه القدوقي بيده، وكتاب "الإتحاف لطلبة الكشاف"، و"المنار في المختار من جواهر البحر الزخار"، وغيرها، فصارت مراجع لكثير من علماء المنطقة. (الدركلي، دون تاريخ).

ومن تلاميذ القدوقي النجباء: الشيخ داود الأسيشى (ت1171هـ/1757م)، وله آثار علمية في الفقه وغيره تدل على "سعة ملكته وكثرة اقتداره". (Abdullaev, 2001).

وممن أخذ عن القدوقي: الشيخ محمد الأبري (ت 1170هـ/1756م)، "وكان مرجع أهل الخلاف في الفتاوى في زمانه... وكان بارعاً في العلوم وتوجد له تقارير حسنة في مسائل العلوم". (الدركلي، دون تاريخ)

ومن المعروف أن جميع طلاب الشيخ محمد القدوقي ورفقائه عند عودتهم إلى مسقط رؤوسهم افتتحوا مدارس وطوّروا مناهج التعليم، وكانوا روّاداً في الحقل التعليمي بمنطقة شمال القوقاز، ويمثل تراث هذا التيار مرحلة مهمة في تطور الفكر العلمي والفلسفي لشعوب داغستان وغيرها، وكان لذلك تأثير كبير على الأجيال اللاحقة. (Abdullaev, 2001).

وممن اشتهر اسمه بنشر العلم في الآفاق: الشيخ محمد بن علي الداغستانى الشهير بقاضى أقاي، كان قاضياً في داغستان، ثم نفي إلى روسيا، فاختار الإقامة في الغربة بولاية أورنبورغ بعد أن قاسى شدائد كثيرة، فاشتغل بالتدريس والإفادة ونشر العلم والوعظ والنصيحة فانتفع به خلق كثير، ثم هاجر في آخر عمره أثناء فتنة (بوغاتشوف) أيام يكاترينا الثانية إلى أرض (قازاخ) مع جميع أهل بيته وأتباعه، وتوفى هنالك سنة 1210هـ، رحمه الله تعالى. (الدركلي، دون تاريخ).

كما يتجلى النجاح الكبير الذي حققه نظام التعليم الإسلامي في هذه الزاوية من شمال القوقاز أيضًا في أن أهل العلم لم يقتصر دورهم على ترديد معارف الآخرين، بل كانوا ينشئون مؤلفات خاصة بهم باللغة العربية، وإن كانت لا تخرج في الغالب عن الإطار العام للعلوم المنتشرة في الأوساط العلمية في بلاد العالم الإسلامي، كما كانوا يعالجون النوازل الخاصة بالمنطقة وفق قواعد الشريعة. (Yarlykapov, 2003).

كان التعليم الإسلامي في شمال القوقاز يتسم بالطبيعة الموسوعية، فكان العلماء يتوسعون في العلوم النقلية والعقلية، فيتعمقون في العلوم الشرعية، وفي نفس الوقت يتقنون الفلسفة والطب والجغرافيا وغيرها، وكثير منهم كانوا يبدعون في إنشاء الأشعار.

يشير الباحث آبدولايف إلى النموذج الذاغستاني بهذا الصدد فيقول: "فلم يكن في داغستان انفصال بين العلوم (الطبيعية) والفلسفة وعلوم الشريعة، وإن كانت الأخيرة تتمتع بشيء من الاستقلال، واستمر الوضع على ذلك إلى القرن التاسع عشر". (Abdullaev, 2001).

وكان الكتاب ذا قيمة كبيرة في الأوساط العلمية بشمال القوقاز، ولذا كان من مصادر الرزق الحلال التي كان يلجأ إليها بعض أهل العلم: نسخ الكتب مقابل أجرة معينة، فكان من أوتي خطاً جميلاً ينسخ الكتب المتداولة ويبيعها، وكان بين النساخ نوع من التنافس، كما يحصل ذلك في سائر الحِرَف، وكان أجملهم خطاً وأتقنهم لعمله هو الذي يحظى بين الناس بقبول كتبه. (Zulpukarova, 2003)

فهذا الشيخ علي الرخونيّ الكوري (ت 1267هـ-1850م) الذي يذكر في ترجمته أنه "مكث في قريته يدرّس ويعلّم الطالبين أزيد من عشرين سنة، وكان صاحب خطٍّ جيّدٍ، كتب بيده كتبا كثيرة ومصاحف شريفة بحيث يعجب الناظرين من جودة الخطّ والتنسيق...". (الدركلي، دون تاريخ).

المطلب الثاني: أوضاع المتعلمين

يطلق لفظ المتعلّم على كل من يتعلّم شيئاً، سواء كان علماً أو خبرةً أو صناعةً أو غيرها، لكن المعروف الشائع إطلاقه على طالب العلم سواءً كان العلم شرعياً أو غير شرعي. (الغموقي، دون تاريخ)

كان المتعلّم في شمال القوقاز يحصّل في العادة مبادئ العلم في قريته، ثم إذا علت همته فإنه يتنقل بين القرى بحثاً عن العلم في مظانه، وقد يسافر خارج البلاد لتلقي العلم على أكابر علماء الإسلام في العالم.

ويكون سكن المتعلم في الغالب في حال تنقّله بالمساجد، وقد يضيفه أهل القرية التي تقع بها المدرسة فيمكث عند أحدهم؛ لأن عادة إكرام الضيف وعدم تركه دون مأوى مما يتباهى به أهل شمال القوقاز، وهي مركوزة في فطرهم، فضلاً عما جاءت به النصوص الشرعية الحاثة على إكرام الضيف، وهذا في الضيف العادي فما بالك في طالب العلم، فأهل شمال القوقاز في هذه العادة لهم شبه كبير بالعرب في جاهليتهم وما بعد إسلامهم.

وإذا نزل المتعلّمون في المسجد واستقروا فيه يقيمون بينهم قواعد وضوابط فيقسمون الخدمات بينهم حسب درجاتهم في العلم والسن، ويكون للطلبة القدماء وكبار السن حرمة خاصة، وتقام الدروس يومياً عدا يوم الجمعة، ومعيشة الفقراء من المتعلمين تكون إما من نصيب الزكاة أو من الأوقاف أو من تبرعات المحسنين. (الغموقي، دون تاريخ)

المطلب الثالث: المؤسسات التعليمية

لا يختلف الوضع في شمال القوقاز عما ساد في أرجاء العالم الإسلامي من الأعراف في تقسيم المراحل الدراسية، فقد كان المكتب (أو الكتّاب) تعدّ المرحلة الأولى في الدراسة، ثم تليه المدرسة.

ذلك هو النظام التعليمي الذي يمر به أكثر المتعلمين، لكن كانت هناك مرحلة أعلى يسعى إليها من علت همته، ألا وهي ملازمة عالم من العلماء

المشهورين وتحصيل العلم على يديه حتى يخرج الملازم عالماً.

كما كانت هناك مرحلة أخرى، وهي ما تسمى بـ "المدرسة القرآنية المنزلية" ينظمها أولياء الأمور داخل المنازل لتعلّم القرآن ومبادئ العلوم الشرعية، وإليها يشير الباحث يارليكابوف بقوله: "غالبًا ما لا يأخذ الباحثون بعين الاعتبار ما يسمى بالمدرسة القرآنية، والتي كان يتم تنظيمها بشكل خاص من قبل الوالدين المتعلمين أو أقاربهم، يبدو لي أنها لعبت دورًا مهمًا في انتشار التعليم بين المسلمين".(Yarlykapov, 2003).

كان الآباء يعلّمون أولادهم الأبجدية والأدعية المختلفة وقراءة القرآن، وبعد أن يمروا بهذه المدرسة المنزلية كان الكثيرون يعدّون أن تعليمهم قد اكتمل ويكتفون بالمعرفة المكتسبة في حياتهم اللاحقة. (Native, 1900).

وقد لعبت المدرسة القرآنية دورًا مهمًا بشكل خاص في تعليم البنات، حيث لم يكن من الممكن بالنسبة لمعظمهن الوصول إلى المراحل التالية من التعليم الإسلامي، وبالتالي، فإنه بالنسبة للغالبية العظمى من النساء كانت المدرسة المنزلية هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يتلقين فيه أساسيات التعليم. (Kaimarazov, 2001).

فيؤخذ من هذا أنه كان هناك نوعان من المكاتب: مكتب منزلي ومكتب مسجدي.

هذا، وسوف يتركز الحديث فيما سيأتي حول المكاتب والمدارس؛ لأنها كانت محور العملية التعليمية المنظمة لغالبية المتعلمين في شمال القوقاز، وذلك على النحو التالي:

أولاً: المكاتب:

- **وصفها:**

المستوى الأول في التعليم الإسلامي المنظم هي المكاتب، وتعدّ دراسةً تمهيديةً للالتحاق بالمدرسة، ولا يمكن حصر عددها بشمال القوقاز طول هذه الفترة.

وكانت مهامها تتمثل في تعليم القراءة وفي بعض الأحيان الكتابة باللغة العربية، وكذلك تعليم أركان الإيمان والإسلام ومعلومات أولية عن الدين.

عادةً ما يتم إنشاء المكاتب داخل المساجد أو في منازل أحد المعلّمين، ولم يكن يشيّد لها أي مبنى خاص، ويصف لنا عمروف المكتب؛ لأنه كان شاهد عيان عليه، فيقول: "كان يتم وضع الفصل (الدراسي) على الشرفة، حيث يوضع جذع طويل، ويغطى ما خلفه بالقش الذي يجمعه المتعلمون بأنفسهم من البيادر، وكان التلاميذ يجلسون على هذه القشة في مواجهة الجذع... ويوضع أمام كل منهم حجران مسطحان يسند أحدهما إلى الآخر بحيث يمكن وضع الكتب أو الألواح عليهما". (Omar-ogly,1868).

- **تمويل المكاتب:**

لم تكن هناك جهة خاصة تتولى النفقة على المكاتب، ولم تكن السلطات المحلية تعدّها من واجباتها، لذلك كان يتم فتح المكاتب وإغلاقها عشوائياً بناءً على ما إذا كانت هناك أموال كافية لدعم المكاتب والمعلمين فيها أو لم تكن. (Selimkhanov, 1957).

- **المناهج في المكاتب:**

كان الهدف الرئيسي من التعليم في المرحلة الأولى هو إتقان قراءة القرآن وتعلّم مبادئ الإسلام، وكان القرآن الكريم هو المادة التعليمية الأساسية في المكاتب، فيتم تعلّم قراءته وتجويده دون التعرض لتفسيره؛ لأن مستوى المعلّم في المكاتب لم يكن يؤهله لذلك. (Ragimova, 2005).

والبداية بتعليم القرآن العظيم كان شعاراً لمناهج المكاتب في سائر بلاد المسلمين، وفيه يقول ابن خلدون (ت808هـ/1405م): "اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أنّ التعليم في الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده؛ لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات...". (ابن خلدون، 1988).

كانت المكاتب في شمال القوقاز تسود فيها الطريقة الأبجدية القديمة المكرسة تقليديًا لتعليم العربية، وصفتها: أن يكتب المعلم الأحرف الأبجدية على السبورة بخط كبير، ثم يلفظ بهدوء كل حرف عدة مرات وبشكل واضح، ثم يلزم المتعلمين أن يكرروا كل حرف بعده، وبهذه الطريقة يتعرف المتعلم على الحروف الأبجدية، ثم يطلع على التراكيب المختلفة للحروف العربية حسب مكانها في الكلمة، ويتعلم كيفية إضافتها، ثم يشرع في تعلّم قراءة القرآن. (Omar-ogly,1868؛ Rezvan, 1991).

وتعلّم قراءة القرآن يبدأ من الجزء الأخير حيث قصار السور التي يسهل حفظها.

وبالإضافة إلى القرآن، يتم في المكاتب تعلّم أداء الشعائر وحفظ أدعية مختلفة وبعض قواعد اللغة العربية.

وهو المنهاج العام لجميع المكاتب في العالم الإسلامي مع اختلاف جزئي تبعاً لاختلاف الأمكنة. (شلبي، 1954).

ولم يكن هناك وقت محدد لبدء الدراسة في المكتب، أي لم يكن يعرف ما يسمى ببداية العام الدراسي ونهايته، وبالتالي كان يمكن للمتعلم الحضور والتسجيل في المكتب متى شاء وتركه متى شاء، وكان للمتعلمين الحق في الانتقال إلى معلم أكثر شهرةً أو علماً. (Kaimarazov, 2001).

تعقد الدروس من بعد صلاة الفجر وتمتد إلى ظلمة الليل حيث لا يمكن فيها تبيّن الحروف.

وجميع التلاميذ كانوا يتواجدون في حجرة واحدة، لكنهم يدرسون بشكل فردي، بحيث يعطي المعلم لكل متعلم دروسه ثلاث مرات في اليوم وأي متعلم لم يتمكن من إعداد دروسه كان يحرم من الاستراحة ويضطر إلى إعادة دروسه، لأجل ذلك كان بعض المتعلمين يكمل دراسته في المكتب خلال ثلاثة أو أربعة أشهر، بينما يتأخر الآخرون لمدة عام أو عامين أو ثلاثة. وإتمام الدراسة بالمكتب لم يكن يمنح الحق في شغل أي وظيفة لمن أرادها؛ لهذا كان من الضروري المرور بالمستوى التالي من التعليم، وهو التخرج في المدرسة.

ثانياً: المدارس

- وصفها:

كانت المدرسة تعدّ من أعلى مستويات التعليم قبل ظهور المعاهد والجامعات، والذين يلتحقون بها ممن تخرج في المكاتب لمواصلة دراستهم كانوا قلةً. (Native, 1900)

وأما عن عدد المدارس فيما قبل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) فإن الباحثين يشيرون أنه ليست هناك بيانات موثوقة عن عددها، ولكن مما لا مرية فيه أن عددها كان كبيراً، وإن كانت أقل من عدد المكاتب.

والمدرسة تقع عادةً إما في مبنى مشيد خصيصًا لها أو في إحدى الغرف المرفقة بالمسجد. (Kaimarazov, 2001).

وإذا كانت المكاتب يتولى التدريس فيها كل من يتقن قراءة القرآن بتجويده فإن المدارس لم يباشر التدريس فيها إلا من اشتهر بعلم غزير وثبتت أهليته عند أهل العلم، وقد ذكر الشيخان: حسن الأقداري وعبد الرحمن الغموقي (ت 1318هـ/1900م) قائمةً لأبرز علماء داغستان الذين تولوا تعليم الناس بالمدارس. (Alkadari, 1891).

اشتهرت داغستان بمدارسها بين جميع أهالي شمال القوقاز، لا سيما المدرسة الواقعة في قرية سوغراتل، والتي كانت تعدّ "منبع العلماء الأتقياء العابدين..."، فكان المتعلمون يتوافدون على هذه المدارس من داخل داغستان ومن خارجها. (Orazaev, 1992).

لم تخلُ المناطق الأخرى في شمال القوقاز من المدارس، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، لكنها كانت أكثر كثافةً في داغستان، وقد كان يزود هذا الإقليم الصغير في ذلك الوقت أهلها وأهل شمال القوقاز بما يحتاجون إليه من التعليم الإسلامي. (Selimkhanov, 1957).

-التمويل:

كان نظام التعليم مستقلاً تمامًا عن السلطة، وإليه يشير القداري: "لم يكن لدى الحكام هنا اهتمام يُذْكَر بالعلوم والمدارس"، (Alkadari, 1891)، وبالتالي لم يكن يتم تخصيص أي مال من خزينة البلد لصالح المدارس، بل كانت المدارس قائمةً إما على التبرعات من أولياء أمور الطلاب وأهل القرى التي توجد بها المؤسسة التعليمية، أو على الأموال الزكوية، أو على الأوقاف الخيرية. (Aglarov, 2022).

وبذلك يتم تشكيل نوع من حصص الإعاشة للمتعلم من خلال الأموال المتلقاة من مصادر مختلفة، وكانت تسمى في داغستان بالنفقة"، كما كانت تسمى جرايةً في بعض البلدان.

يذكر أن الأوقاف كانت أحد أهم مصادر تمويل التعليم في المنطقة، لذلك حرصت السلطة القيصرية الإشراف عليها، ومن ثم تجفيف منابعها أو تحويل مصارفها إلى جهات أخرى غير التعليم الإسلامي، و"... كان إضعاف الأوقاف والقضاء عليها إحدى وسائل الاستعمار في محاربة الحضارة الإسلامية، باستشعاره أن الأوقاف تمثّل أحد الروافد المهمة لمقوماتها الحضارية". (مهدي، 2022).

بالإضافة إلى ذلك كان المتعلمون يحصلون على بعض الأموال من خلال قراءة القرآن في المآتم، وجمع الصدقات، وفي بعض الأحيان من خلال مناشدة الأمراء أو الأثرياء، والتي كانت تُكتب على الورق بأسلوب موحد.

والطريقة الأخيرة كانت تحدث في داغستان نادرًا، وتتم حين يقوم شخصية مشهورة بزيارة إلى القرية التي توجد فيها المؤسسة التعليمية، وفي هذا السياق يقول عبد الرحمن الغموقي: "وللمتعلمين عندنا عادة أخرى، وهي أنه لو نزل في قرية، اجتمعوا بها، نائب أو غني أو محترم آخر، يكتبون إليه رسالة السؤال، فيجود لهم بما يطيب به قلبه أو يخيبون عن المرام". (الغموقي، دون تاريخ).

- **المناهج في المدارس:**

كانت طرائق التدريس في مدارس شمال القوقاز تشبه تماماً الطرائق المعروفة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد اشتهرت طريقة الشروح منذ ظهور المدارس في القرن الخامس، وهي قراءة المتن بصوت عال، ثم قيام المدرس بشرحه (Mets, 1996).

ولم يكن من المعروف في المدارس نظام الفصول الدراسية، على الرغم من أن المناهج تحتوي على دائرة محددة من العلوم المنسقة، وهي مجموعة من الكتب التي تتم دراستها بتسلسل دون الخروج عنها، مع التوسع في بعض المواضيع، ومن هنا لم يكن بالإمكان تحديد مدة الدراسة؛ لأن التخرج كان يعتمد على القدرات الفردية لكل متعلم.

وهنا تلفت الباحثة (راغيموفا) النظر إلى أن "القدرات الفردية للمتعلّم في ظل مثل هذا النظام تؤخذ في الاعتبار أكثر من نظام الدروس الأوروبية

المألوفة لدينا، والذي يتعامل مع المجموعة". (Ragimova,2005).

ويقول أوسلار الروسي: "لا تقوم المدرسة بإعداد شخصيات بارزة فحسب، بل إنها تؤثر على الشعب بأكمله، إذا كانت على اتصال وثيق به وغير منقطع عنه، والمدارس الإسلامية في داغستان تتصف بهذه الصفات، ويجب علينا إنشاء مثل هذه المدارس، وإن كانت في الاتجاه المعاكس، عند ذلك فقط يمكننا أن نأمل في التحقيق التدريجي لنوايانا، ويمكن للغة الروسية أن تدخل في منافسة مع العربية". (Uslar, 1887).

وبالنسبة للعلوم المتداولة في داغستان وغيرها فقد فصّلها الشيخ عبد الرحمن الغموقي حيث قال: "وهي اثنا عشر علمًا: الصرف والنحو والعروض والمنطق والمناظرة والفقه والتفسير والسير والتصوف، وعلم المعاني والبيان والبديع، هذه الثلاثة تعدّ علمًا واحدًا، وعلم المحاضرات، والخلاصة". (الغموقي، دون تاريخ).

يُلحَق بهذه العلوم: الجغرافيا وعلم الفلك، وأحيانًا الفيزياء والفلسفة، وكذلك اللغة التركية والفارسية (.Kaimarazov, 2001)

كانت العلوم التي تعتبر من الوسائل تستخدم لخدمة الأمور الشرعية المقصودة لذاتها، فعلى سبيل المثال، تتم دراسة قواعد اللغة العربية من أجل فهم معنى النصوص الشرعية بشكل صحيح ودون تحريف، والجغرافيا: لتحديد الجهات والاتجاه الدقيق إلى جهة القبلة، وعلم الفلك: لمعرفة أوقات الصلوات وبداية الصيام ونهايته بشكل صحيح؛ وكانت الحاجة إلى معرفة الرياضيات لحل المسائل الوراثية. (Yarlykapov, 2003).

وهذا عينة للدرس اليومي الذي يجري في المدارس: يجلس المعلم ويدعو كل تلميذ إليه حسب دوره، فيطلب منه أن يعيد الدرس الماضي، ثم يقوم المعلم بقراءة درس جديد عليه مع ترجمته إلى اللغة المحلية كلمةً كلمةً، ثم يطلب من التلميذ أن يعيد المسموع مرة أخرى، فكان ذلك بمثابة واجب لليوم التالي، وإذا لم يتقن التلميذ الدرس الماضي فإن درسه الجديد يتم تأجيله، وفي بقية الوقت فإن التلاميذ كانوا يراجعون دروسهم بأنفسهم، وكان دور المعلم يقتصر على إبداء الملاحظة على تلميذ يجلس دون كتاب، إذ كان من المفترض أن يجلس التلميذ دائماً مع كتاب. (.Omar-ogly,1868)

ومنذ نهايات القرن الثالث عشر بدأت المناهج المتبعة وطرائق التدريس المستخدمة في المكاتب والمدارس، وكذا المواد التي يتم تدريسها تثير بين القادة المسلمين شعوراً متزايداً بعدم الرضا، وضرورة المراجعة والإصلاح. (Yarlykapov, 2003).

ومن أكثر الأمور التي كانت تبعث على الاستياء ما كانت تتصف به الدروس من التركيز على الحفظ دون الاهتمام بالفهم والتدبر، بينما هذا الأخير هو الذي يبني الشخصية الإسلامية المتميزة، وهو الذي ينتج العمل المثمر، وقد زخر القرآن بالنصوص التي تحث على النظر والتأمل والتفكر. (الزبيدي، 2016).

كما أن الاقتصار على العلوم الشرعية دون الإلمام بالعلوم الدنيوية كان موضع نقد، ولا ينكر أنه كان هناك من العلماء من يتصف بالموسوعية، وكانت مناهج بعض المدارس تحتوي على مواد مثل الجغرافيا والفيزياء والرياضيات وغيرها، ولكنها لم تكن كافية، ولم تكن تجاري التطور العلمي الذي كان يشهده العالم. (Isaev, 2003).

هذا، ويحسن بنا قبل الخاتمة أن نسلط الضوء على نظام التعليم الإسلامي الذي تشكل في ظل إمارة الإمام شامل (ت 1287هـ/1871م) في المدة ما بين عام 1249هـ (1834م) وعام 1275هـ (1859م)، حيث احتلت الإمارة الإسلامية التي تشكلت في جزء من داغستان تحت قيادة الإمام شامل مكانةً بارزةً في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية لمنطقة شمال القوقاز برمتها حتى غطت الأحداث التي جرت في الإمارة في تلك الفترة على كل ما كان يحدث بالمنطقة، وكانت أخبار الإمارة موضع اهتمام الساسة ورجال الصحافة وعامة الناس.

يشير (كايمارازوف) إلى أن "نظام التعليم الإسلامي الذي تشكّل في داغستان خلال قرون لم تطرأ عليه تغيرات كبيرة"، (Kaimarazov, 2001) حيث بقيت مراحل التعليم من المكتب إلى المدرسة على حالها أيضاً، وكان المتعلمون يسكنون في الحجرات التابعة للمسجد، كما كان الأمر من ذي قبل، لكن حصل هناك شيء مختلف عما سبق، وهو أن التعليم في ظل الإمارة صار تابعاً لنظام سياسي وعسكري مهمته الكبرى مقاومة المحتل، فأصبح الاتجاه العام للتعليم مشبعاً بروح المقاومة، وكانت المناهج تغذّى بضرورة طرد المحتل. (Ragimova, 2005).

حرص الإمام شامل على نشر التعليم في إمارته، فكان يراقب مراقبةً صارمةً نظام التعليم ويتخذ الإجراءات اللازمة لاستبعاد إمكانية توقف التعليم في المناطق التي تسيطر عليها الإمارة، وقد كان يتجول في القرى ويقوم شخصياً بالوعظ والتعليم بطريقته الخاصة التي تناسب مقامه. (Verderevsky, 1856).

فهو يعتبر من الأفذاذ الذين استطاعوا أن يجمعوا بين السياسة والتربية وأن يقتدوا بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي جمع بينهما و"بين التدبير والإعداد؛ ليكوّن بذلك جيلاً قادراً على تحمل المسؤولية، ومتشرباً للمنهجية النبوية في فن السياسة وذكاء التربية" (حريز والقضاة، 2020).

وفي ظل ظروف الحرب المرهقة كان الإمام شامل يضطر للبحث عن مصادر لملء خزينة الدولة، ومع ذلك كان يترك أموال الزكاة في أيدي العلماء الذين كانوا ينفقونها في وجوه الخير كرعاية متطلبات المساجد والمدارس وغيرها، كما أن خمس العنيمة كانت تصرف للعلماء والمعلمين.

وتفيد المصادر المتوفرة أنه كان من خصائص التعليم في مدارس الإمام شامل إعداد المريدين حسب الطريقة الصوفية، فكان الراغبون في تحوّلهم إلى مريدين يُقْبَلون بغض النظر عن أعمارهم أو مستوى تعليمهم، فإذا أبدى المرء رغبته في المريدية فإنه كان يتلقّى التعليمات المطلوبة وينبّه على

الكتب المتعينة والموضوعات التي تستحق اهتماماً أكثر. (Kaimarazov, 2001).

من الواضح أن التدريب العسكري أصبح من أهم مكونات نظام التربية والتعليم، فكان كل نائب ملزماً بتدريب الشباب على الشؤون العسكرية، وبناء على تم إنشاء مدارس عسكرية، وكان أحد أبناء الإمام شامل يقوم بتعليم الجنود وتدريبهم.

ولم يكن يُطلب من المريد الذي يعدّ للمشاركة في الحرب أن يتعمق في دراسة العلوم الشرعية، بل كان يقتصر تعليمه على إتقان قراءة القرآن مع توعيته بضرورة المشاركة في الغزوات.

يقول القائد العام نيدجاردت للقائد العام الآخر تشيرنيشيف في تقريره عن الإدارة التي أسسها الإمام شامل في منطقة الشيشان: "لقد اكتسبت المؤسسة الدينية في الشيشان وزناً وقوةً لا يستهان بها منذ ظهور شامل. أنشأ شامل مدارس بالمساجد لنشر العلوم التي تعدّ ضرورة للمناصب الدينية، وهذا الإجراء مهم جداً من الناحية السياسية، حيث يتم اختيار الموجّهين في هذه المدارس من الناس المخلصين لشامل، وهم يوجهون عقول الشباب..." (Ramazanov, 2003).

كان الإمام شامل يقدّر أهل العلم ويولي بهم اهتماماً خاصاً؛ لأنه كان يفقه تماماً الدور الهام الذي يؤديه أهل العلم في سائر جوانب الحياة، وهم الناصحون لولي الأمر والبطانة الصالحة التي تدله على الخير، وإليهم "تشجيع الإمام وتوجيهه لإصدار قرارات تخدم الأمة والمجتمع وتطوره وتنميه، لتحول من الوقوع في الأزمات والورطات..." (هادي، 2022).

وقد حفظت رسالته المكتوبة بخط يده والموجهة إلى أهل قرية قراخ بشأن أحد العلماء، وفيها: "أما بعد، فهذا العالم محمطلوْ لما رأينا نفع الخلق في اختلائه في بيته بالتزام تدريس طالبي العلم وتعليمهم، أمرناه بذلك، فاتركوه مهملاً عن الوظائف الجارية بينكم مع أبيه الشيخ الهرم الضعيف؛ تطييباً لخاطره وتحسيناً لظنه، فلا تظنوا بذلكم الظنون، والله يحب المحسنين، فالسلام. يوم الأربعاء من ذي الحجة، سنة 1263هـ". (Omarova, 1997).

ومما يدل على تقديره الفائق للعلماء أنه إذا وقع تشاور حول أول من يخلّص من الأسر وكان بين الأسرى عالم من العلماء، فإنه لم يكن للإمام شامل رأيان، بل كان يقدّم أهل العلم على الفور.

أولت الدولة في عهد الإمام شامل بالتعليم اهتماماً كبيراً، لإدراكها أن المدرسة ورشة موثوق بها لتخريج أتباع الشريعة المخلصين، فكان في كل قرية مكتب لتعليم القرآن، وفي القرى الكبيرة التي يحكم فيها القاضي توجد مدرسة، وكان من واجبات القاضي، سوى مهامه المباشرة، مزاولة التعليم. (Ramazanova, 2006).

ووفقًا لبعض المصادر تم إنشاء مؤسسة خاصة في الديوان الأعلى (مجلس الدولة الأعلى) بمبادرة من الإمام شامل، وهي هيئة تتولى شؤون المؤسسات التعليمية والمعلمين وترعى الموهوبين. (Kaimarazov, 2001).

ونتيجةً لمثل هذه السياسة، بالإضافة إلى قناعة الناس بأن "البقاء في الجهل خطيئة، وطلب العلم عمل صالح"، تم تحقيق نتائج إيجابية في نشر التعليم في فترة وجيزة.

الخاتمة

تنتظم الخاتمة النتائج والتوصيات، وذلك على النحو التالي:

أولاً: النتائج:

توصل الباحثان خلال دراستهما إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها في الآتي:

- احتل التعليم الإسلامي في شمال القوقاز موقعاً مهماً في الحياة الثقافية منذ القرون الأولى لتغلغل الدين الإسلامي فيها.
- تزامن ظهور المدارس في شمال القوقاز مع نظيراتها في العواصم الإسلامية الكبرى.
- تشكّل في شمال القوقاز نظام تعليمي إسلامي متكامل وفق ظروف المرحلة وطبيعتها قوامه المكاتب والمدارس.
- أشاد المستشرقون بالتعليم الإسلامي في شمال القوقاز وأشاروا إلى خصائصه ومزاياه.
- شابهت المناهج في المكاتب والمدارس تلك التي كانت منتشرة في العالم الإسلامي، ومع ذلك لم يقتصر دور العلماء والمعلمين على التقليد المحض، بل أبدعوا في بعض الجوانب.
- اشتهر أهل شمال القوقاز بتوقير المعلمين وتقديرهم وسماع رأيهم ومشورتهم.
- يرجع ظهور المؤلفات المحلية الأصلية باللغة العربية في المنطقة إلى ما قبل القرن العاشر الهجري.
- أصبحت المدارس هي المراكز الرئيسية للحياة الدينية للمجتمع، ويلبي خريجوها حاجات المجتمع الثقافية.
- كانت اللغة العربية تستخدم ليست للتعليم فحسب، بل كانت لغة الثقافة العامة، باعتبارها لغة القرآن الكريم.
- لم يكن هناك أي نوع من التعليم لدى الشراكسة سوى التعليم الإسلامي قبل أن تفتتح السلطات الروسية مدارسها.

- شاركت منطقة شمال القوقاز العالمَ الإسلاميَ في التزام المبادئ في نظامها التعليمي، كمبدأ مجانية التعليم ومبدأ الإلزامية ومبدأ الاستمرارية.
- تميزت داغستان على بقية مناطق شمال القوقاز بكثرة العلماء وكثافة المدارس.
- اتسمت المؤسسات التعليمية بشيء من الاستقلالية عن رقابة السلطات.
- تميزت العملية التعليمية في ظل الإمارة الإسلامية بقيادة الإمام شامل بطابع خاص لتبعيتها لنظام سياسي وعسكري فاصطبغت بلونها.
- لم يخلُ النظام التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة المذكورة عن بعض جوانب الضعف والقصور، كعدم تأمين معيشة المتعلمين بشكل كاف، وعدم تهيئة أماكن التعليم المناسبة، والتمسك بطرائق التدريس القديمة دون تحديثها، وغيرها.

ثانياً: التوصيات

توصي الدراسة القائمين على الإدارات الدينية والمؤسسات التعليمية وسائر المعنيين في أنحاء شمال القوقاز وغيرها بما يلي:

- البناء على الجوانب الإيجابية في تجربة التعليم الإسلامي في شمال القوقاز في الفترة التي تناولتها الدراسة الحالية.
- تلافي جوانب القصور والضعف، والسعي للجمع بين جوانب الأصالة في تجربة التعليم الإسلامي في شمال القوقاز والمعاصرة التي تفترض الإفادة منها ضمن التطور الهائل الحالي في مجال التربية والتعليم.

مقترحات الدراسة:

يقترح الباحثان إجراء دراسات حول التعليم الإسلامي في جمهوريات شمال القوقاز، كل على حدة، لمعرفة أوجه الاتفاق والاختلاف بين كل منها وبعضه من جهة، وعن نظيراتها في العالم الإسلامي، بصورة عامة، من جهة أخرى.

المصادر والمراجع

ابن بطوطة، م. (1996). *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. أكاديمية المملكة المغربية.

ابن خلدون، ع. (1988). *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*. (ط2). دار الفكر.

أبو غدة، ع. (1966). *الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم* .دار البشائر الإسلامية.

إسماعيل علي، س. (2010). *موسوعة التطور الحضاري للتربية الإسلامية: معاهد التعليم الإسلامي*. دار السلام.

البخاري، م. (2001). *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه*. دار طوق النجاة.

البلداوي، م. (2023). مراحل تطور فناء المسجد الداخلي تاريخيًا دراسة تحليلية المساجد: مسجد القيروان ومسجد ضريح السلطان حسن. *دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية*، 50(1)، 33-50.

بني أحمد، خ.، والزقيلي، ع. (2010). آثار الأمم السابقة وحكم المحافظة عليها في ضوء الشريعة الإسلامية. *المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية*، *7* (3) ، 91-108.

بني عيسى، ع. (2022). تحسين إنتاجية الباحث العربي في ضوء متطلبات العولمة. *مجلة العلوم التربوية*، *49* (2)، 286-294.

حريز، ع.، والقضاة، أ. (2020). أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تجمع بين السياسة والتربية. *دراسات: علوم الشريعة والقانون*، *47* (1)، 151-160.

الحموي، ي. (1995). *معجم البلدان*. (ط2). دار صادر.

الدركلي، ن. (د.ت). *نزهة الأذهان*.

الدهشان، ج. (2019). مجانية التعليم ضرورة مجتمعية لتحقيق تكافؤ الفرص التعليمية والعدل التربوي. *مجلة كلية التربية*، *7* (19) ، 13-40.

الذهبي، م. (1993). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. (ط2). دار الكتاب العربي.

الرويشد، ع. (2022). تقديرات معلمي التربية الإسلامية لدورهم في توفير البيئة التعليمية الآمنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بدولة الكويت من وجهة نظرهم. *دراسات: العلوم التربوية*، *49*(2) ، 408-420.

الزبيدي، ف. (2016). الشخصية الإسلامية المتميزة من منظور قرآني: مقوماتها وكيفية بنائها. *المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية*، *12* (1) ، ص318-ص322.

سليمان، س. (2006). *معايير الجودة في أداء المعلم: الجودة الشاملة في التعليم*. دار المسيرة.

شلبي، أ. (1954). *تاريخ التربية الإسلامية*. دار الكشاف.

الصبيحات، إ. (2016). الجذور الإسلامية للفكر الإداري المعاصر. *المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية*، 12(1) ، 101-122.

عبد الرحمن، ط. (1994). *تجديد المنهج في تقويم التراث*. المركز الثقافي العربي.

عزت باشا، ي. (1933). *تاريخ القوقاز*. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه.

علي، م. (2011). *موسوعة المصطلحات التربوية*. دار المسيرة.

الغميقي، ع. (دون تاريخ). *التذكرة في بيان أحوال أهالي داغستان والشيشان*.

القزويني، ز. (دون تاريخ). *آثار البلاد وأخبار العباد*. دار صادر.

القنوجي، م. (2002). *أبجد العلوم*. دار ابن حزم.

مسلم، ا. (11992). *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*. دار إحياء التراث العربي.

المنصور، ن. (2022). أهمية اللغة العربية في دراسة علوم الشريعة. *المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية*،1(47) .

مهدي، ب. (2022) مراجعة علمية لكتاب: سُبل حماية الأصول الوقفية: الأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت أنموذجا. *مجلة جامعة الملك عبد العزيز الاقتصاد الإسلامي*، *35* (3)، ص141-ص154.

هادي، أ. (2022). المسؤولية الاجتماعية عند الإمام الجويني في كتابه غياث الأمم في التياث الظلم. *دراسات: علوم الشريعة والقانون*، 49 (1)، 14-29.

References

Abdullaev, M. (2001). *Arab-Muslim scientific and philosophical thought in pre-Soviet Dagestan*: Islam and Islamic culture in Dagestan. Moscow.

Aglarov, M. (2002). *Andiitsy: Istoriko-Betnograficheskoe issledovanie*. Makhachkala.

Alkadari, G. (1891). *Asari-Dagestan: Historical information about Dagestan*. (A. Hasanov, Trans.) Manuscript collection of the Institute of History Archeology and Ethnography of the Dagestan Scientific Center of the Russian Academy of Sciences.

Bobrovnikov, B. (2005). Catalog of manuscripts and early printed books in Arabic, Persian and Turkic languages from Kabardino-Balkaria. *Journal Written Monuments of the East*, *1*(2), 271-272.

Buzarov,K. (n.d) *The development of public education in Adygea: II half of the 18th century and the first half of the 20th century.*

Gadzhiev,M., Davudov, O., & Shikhsaidov A. (1996). *History of Dagestan from ancient times to the end of the 15th century.* Makhachkala: Dagestanskii nauchnyi tsentr RAN: Islamic culture in Dagestan.

Isaev, A. (2003). *Islam and Progress Magomedmirza Mavraev: Pioneer and Enlightener of Dagestan*. Makhachkala.

Jauhar, Nasaruddin. (2014). "taaleem luga arabiya lin-natiqeen bi goiriha ab'aduhu as-saqafiya. *Ulumuna 18*(1), 1-20.

Kaimarazov G. (2001). *Muslim education system in Dagestan: Islam and Islamic culture in Dagestan. =*

Kaimarazov,G. (2001). *Muslim education system in Dagestan Islam*.

Karlgoff,N. (2004). *On the political structure of the Circassian tribes inhabiting the northeastern coast of the Black Sea.* Nal'chik.

Krachkovskii, M. (1960). *Arabic manuscript of memoirs about Shamil: Selected works*. VI.

Mets,A. (1996). *Musul'manskii Renessans.* ViM.

Native,M. (1900). *Literacy in the mountains of Dagestan Ethnographic Review.*

Neflyasheva,N. (2009). Muslim education in the Northwestern Caucasus. *Bulletin of Moscow University*, 4-75.

Omar, A. (1868). *Memoirs of a Mutalim: Collection of information about the Caucasian highlanders*. Tiflis.

Orazaev, G. (1992). *Autobiography of Abusufyan Akkaev. Literary and scientific heritage of Abushyan Akkaeva: collection of articles and materials*. Mahakhachkala.

Ragimova, P. (2005). *Confessional Education in Dagestan in the All-Russian Educational Context: Past and Present.* Makhachkala.

Ramazanova, B. (2006). *Socio-pedagogical significance of social policy in Shamil's imamate*. Makhachkala.

Selimkhanov, A. (1957). *From the history of education in Dagestan in the 19th centuryUchenye zapiski*. Makhachkala: Dagestan State Women's Pedagogical Institute.

Shikhsaidov, A., & Al-Kazvin Z. (1987). *About DagestanSource study of the history of pre-Soviet Dagestan.* Makhachkala.

Shikhsaidov ,. (2001). *Spread of Islam in Dagestan Islam and Islamic culture in Dagestan*. Mocsow.

Shikhsaidov A., Tagirova N., & Gadzhieva, D. (2001). *Arabic handwritten book in Dagestan.* Makhachkala.

Uslar,P. (1887). *Ethnography of the Caucasus, Publication of the Directorate of the Caucasian Educational District. Tiflis: Type. Kants.* City manager Citizenship part in the Caucasus.

Verderevsky, E. (1856). *Captivity at Shamil*. St. Petersburg.

Yarlykapov,A. (2003). Islamic education in the North Caucasus past and present. *Vestnik Evrazii Acta Eurasica*, 2(21), 3-7.

Zaitseva,O. (2009). Continuing education: basic concepts and definitions. *Vestnik TSPU, 7* (85).

Zulpukarova, E. (2003). *Formation and activities of the Dagestan intelligentsia. Late 19th - mid 20th century*Makhachkala.